أبو شادى شاعرا

-١-

قبل اليوم وقفنا من أبى شادى موقفا تاريخيا موضوعيا حين عرضنا ديوانه المشهور « الشفق الباكى » أوحين عرض هو لاذاعة هذا الديوان ونشره فى الجمهور ، واظننا استطعنا هناك أن نظهر الجمهور على شىء من العوامل التى لابست حياته وطبعت شعره طابعه الخاص سواء فى الموضوعات أو الأساليب أو النزعة التجديدية القوية . . . ولكن يظهر أن تلك الوقفة لم تقنعنى كما لم تقنع كثيراً من قرائه المعجبين به والذين يحبون استظهار الفكر الرئيسية التى تسيطر على نفس هذا الشاعر وتسود شعره ... فكان لابد من الالمام به المامة — وان تكن عجلى — فلقد يكون فيها بيان موقفه فى هذه النهضة الحديثة. نهضة الأدب العربى عامة والشعر خاصة ، ولا أتنبأ بنتيجة هذا البحث وما قد يكون فيه من الخير أو الشر للشاعر أو الشعر نفسه ، فتلك مسألة لاأحب التفرد بالحكم فيها وبحسبى أن أحاول شرح ما أراه ، والناس أحرار فيما يرون ماداموا معتمدين على دراسات وبراهين .

مسألتان أحب أن أقدم بهما هذا البحث أما احداهما فميزة الشعر من ناحيته الفنية وأما الثانية فعلاقة الشعر بعصره وبروح هذا العصر من حيث الثقافة والنزعة العالمية

حقا إن النظرية الانجليزية هى أن الادب نقد الحياة ومعرفة الانسان نفسه وما حوله، وسواء أكانت هذه النظريه من مستحدثات هذا العصر أم هى بعينها نظرية القدماء من فلاسفة اليونان الذين يقولون « اعرف نفسك قبل كل شىء » . فانها من غير شك تفيدنا فى هاتين المسألتين، إذ يقولون أيضا إن مهمة الشاعر — مثلا — ليست فقط فهم المعانى والاحاطة بموضوع مسألته وفقهها ، وإنما المهمة العظمى هى السبيل التى يتخذها الأداء رسالته، ومعنى هذا — بالتعبير الاصطلاحى — أن مهمة الشاعر هى فى فنه وما يسدله على الحقائق والموضوعات من دقة التصور وحسن الخيال والتصرف فى الحقائق بما يجعلها سائغة جميلة تمتاز فى الشعر عنها فى النثر . وهنا نقول لابأس على الشعر أن يكون مستقر الحقائق مهما تكن، ولكن من الناحية الفنية فقط، حتى يكسبها الشعر جمالا

يزيل جفاءها ويتحامى براهينها ومنطقها الرسمى لتكون حلوة حارة صادقة. وهنا تسقط أول شبهة لاولئك الذين يعيبون على أبى شادى تناوله المسائل العلمية حين يشعر متأثرا بنفسه أو بدراسات بعض الأدباء الغربيين ، ولو أن أبا شادى كان عالماً فقط ينظم لنا المسائل العلمية الخالصة لكنا أسبق الناس إلى الثورة فى وجهه ورفض شعره ، أما وهو يشعر فى ضوء العلم ويتخذ من ثقافته العلمية مصفاة للشعر من السخافات وملهمة لكثير من التصورات والفكر فليس فى ذلك من عار ولا عاب ... ولست أغلو ، بل أقول أن علم أبى شادى قد يطغى على عاطفته . وقد يكون ذلك لسرعة انتاجه أولأننا نحن متأثرون بنزعات شعرية خاصة تجعل مثل هذا الشعر فى بعض الأحيان غريباً عنا أو سابقا لأوانه ، وسأعرض لذلك مرة ثانية فى هذا المقال

***

وأنت بعد هذا تستطيع أن تجد فى شعر أبى شادى وغيره صورا شتى لقيمة هذا هذا الفن الشعرى فى تجميل الحقائق والتأثير فى النفوس واجتذابها مصداقا لرأى أناتول فرانس الذى يرى أن الفنون تسر ، وعليها ان تجذبنا إليها بما فيها من سحر البلاغة وقوة الأداء — خبرنى ما الذى راعك فى قول ابن الجهم لما صلب :

إن يبتذل فالبدر لا يزرى به أن كان ليلة تمـــة مبذولا
ماعابه أن بز عنـــه ثوبه فالسيف أهول مايرى مصقولا

هل تجد فى هذا الشعر إذا صفيته أكثر من محاولته رد الشماتة فى عريه وابتذاله بأسلوب لو قسناه بمقياس الحقيقة الخالصة لسقط وكان صفرا ، فأين حاله من السيف المصلت بل من البدر المكتمل ؟ .. ولكن انظر كيف حاول الرجل اقناع عواطفنا — وأخشى أن أقول وفكرنا — بأن ما حدث له إنما هو أمر عادى بل جميل مقبول ينال البدر فيكون جليلا والسيف فيكون مهيبا مخوفا

ولقد ذكرت لك هذا المثل لتعرف قيمة الفن فى الأداء ومقدار صلته بالحقائق العلمية وغيرها ، ولو كان الديوان أمامى الآن لأظهرتك على شىء كثير منه

وهناك مسألة أخرى تتصل بالنقطة الفنية اتصالا وثيقا هى أسلوب هذا الشاعر ، أما أنا فكما ذكرت ذلك — فى غير هذا الموضع — أرى أن الدكتور أبا شادى قادر على

الجزالة وقوة الأسلوب ،وشعره شاهد بذلك، ولكنه يحاول أن يكون مصريا ويتعصب للبهاء زهير ويرى فى أسلوبه اللغة المصرية المناسبة غير مبال رأى المفتونين بالموسيقي اللفظية الرنانة المقلدة ، ويعنى جل العناية بالثقافة الموضوعية والمعنوية — والحق — سواء أرضى أم غضب — أن فى أسلوب الشاعر تفاوتا واضحاً، فبينا تراه جزلا — فى سلاسة — إذ تراه سهلا ممهلهلا . وأنت واجد مثل الحال الأولى فى مثل رثاء صروف وثروت والبيئة . وللحالة الاخيرة أمثلة فى ديوانه . ولاشك أن المتأثرين بالشعر القديم لا يرضون الا بالشعر فخما رنانا غير معنيين بروح العصر وما استلزم من استحالة لفظية

أذكر ذلك لأنى رأيت جماعة من المتأدبين يذهبون فى هذا الشاعر مذهبين متناقضين، فمنكر عليه، متطرف ومتعصب له غال، ونرجو ألا نكون من أحد الطرفين. ولا أذكر مذاهبه اللفظية فى الشعر من حيث الوزن فذلك قد وفيته فى غير هذا المكان.

— ٢ —

المسألة الثانية وهى هامة قويمة . صلة الشاعر ونوع رسالته ومقدار الصلة بينه وبين ما تتطلب الحياة من جهد شعرى .. فالانسانية وخيرها، والتعاون العالمى، والتفاؤل التام ، أظنها تلخص رسالة أبى شادى تلخيصا مقبولا .. ولكن أين تلك من مهمة الشاعر . وهل من وظيفة الشاعر أن يكون رجل اصلاح وداعية خير مع أنه رجل فن يبعث فى النفوس اعجابا بأدائه مهما يكن لونه ؟

وهذه المسألة تحوجنا الى استعراض التاريخ لفكرة الشاعرية فقد كان الشعر قديما مظهرا للفردية يظنه صاحبه — والناس معه — نوعا من الفكاهة والتندر لا يبغون من الشاعر زعامة أو نبوة وإصلاحا .فعاش الشعر بسيطا سقيما يعبر عن عاطفة صاحبه. فتطور هذا ما يميل إليه بعض المتأدبين اليوم الذين ينكرون علينا صلة الشعر بعصره الاجتماعى والسياسى والعقلى . . . ولكن الشعر نفسه أخذ بتوالى الزمن وتنبه الشعراء يسيطر على الناحية المعنوية للحياة الدنيا كما تسيطر الكهرباء مثلا على مادتها، وصار بعد حين صورة للأمم والشعوب فى فترات تاريخية تطول وتقصر مع جهد الشاعر واحاطته. وآخر الأمر كان الشعر فى الدنيا روحها حين كان العلم مادتها وجسمها . فانظر إذن قيمة الشعر والأدب وتعاونهما — مع العلم والمال — فى بناء الحياة وتقويمها ؟ وكان عهد

الناس بالشاعر مادحا فاذا به اليوم ممدوح لأنه ملك وزعيم ،ولأنه صاحب دعوة و رسالة،ولأنه مرب ومهذب وعليه قسط كبير فى تكوين العقل البشرى وتوجيهه الى صلاحه . . فهل بعد هذا تنكر على أبى شادى أن يكون صاحب فكرة الخير والتفاؤل والتعاون العالمى والميل الى سيادة الانسانيـة ؟! نعم ان الشاعر كالفنان له أن يعرض لمظاهر الشر أو الرذيلة ولـكن كيف ذلك ؟ أيغرى بها الناس و يجملها بفنه ليتردى فى حمأتها الاغرار أو الشبان فتكون العاقبـة وخيمة خاسرة ؟أم يحللها ويبين عواقبها وما ينبت فيها من شرور وضلال فيكون ذلك على الأقل انصافا للحق بله تبصير الناس وصرفهم إلى الطهر والـكمال . . لتكن الغاية العالمية للكون مجهولة أو معروفة ولتكن الطبيعة صريحة أو مغرية تسوقنا لخدمة غايتها و تخلق الوسائل لحمل الناس على التشبث بمبادئها والنزول على ارادتها المعتدلة ..أليس الأجدر بالناهين كما يرى ريتان أن يساعدوا الطبيعة فى مهمتها الخيرة وان يعرضوا على الناس صورا وضاءة للحياة مادام التشاؤم لايجدى غير البؤس و التبرم وسوء المصير ؟ !

أما أنا فلن أقنع من الشاعر أن يقف عند حد التعبير دون أن يوحى الينا برسالة تؤثر فى الحياة الدنيا والا كان الشعر والأدب مهزلة تضحك العلماء،ولا أبغى من الشاعر أن يعرض للحكم والخطابة والوعظ و إنما أرجو منه أن يبعث بروحه ومبدئه فى ثنايا قوله ممثلا وواصفا وقاصا وموريا . . ومثله مثل المصور الماهر أو الرسام لاتعنيه الألوان والاوضاع إلا بمقدار مايبغى من شرح عاطفة أو تمثيل مشهد أو تحليل نفسيات، ولا أدرى إذا كنت هنا أشير لشعره التصويرى وكيف فتح بابه ووفق فيه ؟

— ٣ —

لفكرة الانسانية والتعاون العالمى والتفاؤل مظاهر شتى فى خلق هذا الشاعر وفى شعره . وفى موقفه من سائر الشعراء . بل وفى ناحية أخرى لا أخجل من ذكرها هى ناحيته الغرامية وليس سرا ذكر ذلك فان المترخين كثيرا مايتلهفون لاستكناه مثل هذه النواحى يستعينون بها على تفسير كثير من الآثار الفنية والأدبية لرجال الفنون والاداب

اذكر أن أبا شادى كتب كثيراً من المقالات والقصائد حول التعاون الأدبى العالمى

فى مناسبات شتى، وأوقن أن روح شعره تنطق — فى صراحة قوية — بهذه الفكرة وكثيرا ما تمنى تكوين جماعات أدبية من الشعراء والكتاب والمتأدبين لهم ناد أو أندية خاصة فيها يتعارفون تعارفا عمليا ويتعاونون على نهضة أدبية شعرية يقومون بها روح هذه اللغة ويصلونها باللغات الحية ويسيطرون بهذا الأدب العربى على الحياة المعنوية بل والمادية أيضاً . . أذكر ذلك والعهد قريب برابطة الأدب الجديد التى بدأها فى الاسكندرية ويحييها فى القاهرة وينفق من الجهد والمال كثيراً ليبعث فيها حياة وقوة

يحب أبو شادى الحياة ، ويحبها بسامة، بل لا يود أن يفهمها الا ضاحكة. هازئا فى سبيل ذلك بعقبات مالية وأزمات مصلحية. ويمقت أولئك الذين يصرفون أنفسهم إلى الناحية السوداء ، وينالون الكون بالتقمة والسخط على ما فيه مما لا يوافق أمزجتهم . حقا إن الدنيا لا تخلو من شر، بل ربما كان الشر ضروريا لصلاحها وحركتها : واذا كانت غاية الشر إنما هى صلاح الحياة فلم لا يكون وسيلة لازمة غايتها ذلك المثل الأعلى الذى تسير الدنيا الى تحقيقه ؟ والنهاية هى الخير على كل حال ، وهب الشر أصيلا أو غاية . وهب تلك الغاية لابد لها من دعاة . فهل من الحتم أن يكون شاعرنا داعية سخط لا تقع عينه إلا على مصارع الفضيلة وظلام الكون ؟

وهل من الحق أن ندعى على أبى شادى التقليد فى ذلك وما رأيناه شاذا عنه مرة؟ وهل نشك فى هذه الرسالة ونحن نراه فى شعره وحديثه أيضا يعرف لكل شاعر ميزته وجماله فى حين التنافر والتباغض مستحكم الحلقات بين جماعة الشعراء . نراه كالنحلة تنتفع بكل لذيذ من كل زهرة وترى الكمال مودعا فى جهات الكون وفى عقول الناس، واذن فخير للفرد أن يكون عادلا معتدلا يتلقى الخير والجمال أنى عثر به، لا يعميه الوهم عن الحق ، ولا يفتنه الشغف فيتعامى عن الهنات : . وأحسبك ترى فى شعره هذه الصفة واضحة جلية فى غير قصيدة .

والناحية الغرامية ؟ هذه موضع العجب. وربما كانت موضع الخلاف بيننا أيضا، ولا أقول هنا الا أن الدكتور يرى فى المرأة ملهمة للشعر ومثالا لناحية فنية يتخذها نموذجه (Model) ويستوحيها أروع الخيال وأسمى التصور . . وينفر كثيرا من الناحية الغرزية

أو الحيوانية فيذهب إلى أنها متلفة لحرارة الشعر مذهبة لروعة الفن متدلية به الى أحط الدرجات .. لا بأس فى ذلك بل ربما كان هذا هو الحق .

وغرام شاعرنا حق لاصناعة فيه يقوم على حرقة ألمت به منذ الصبا وكان لها فى حيـاته آثار سيئة — أو حسنة كما تشاء — ولكن نتائجها للشعر كانت حسنة من غير شك . أترك تفصيل ذلك لغير هذه الفرصة . وإنما أقرر هنا أن أبا شادى فى هذه اللحظة الزمانية يشرف على (مثاله) أو يشرف عليه مثاله . . ولا يزال مع هذا يقول الغزل الصادق . فكيف هذا؟ ولأوضح ذلك — أرى أن الغزل الحار يكون مع الحرمان فينتج الشكوى الصادقة وحرقة الجوى التى تكاد تأكل الألفاظ أكلا . فاذا كان لقاء ووصل فليس بعد هذا الا الشعر القصصى الذى ينم عن اطمئنان وسرور ووصف اللقاء واللهو . . ويدعى أبو شادى أنه فى هذه اللحظة يقول غزلا حارا — وهو محق فى ذلك — مع أنه على كثب من (فينوسه) . وهنا نفترق فأزعم أنا أنه فى هذا الاقتراب أبعد ما يكون بل أشد حرمانا واحتراقا لأنه متأثر كما قلت لك بالوقوف عند درجة الفن فحسب لا يحب ان يتجاوز ذلك الى ماوراءه مما يمقته . ولأن غرامه مشوب بمصارع و مأسيات سيكشف عنها التاريخ فى الوقت المناسب . فلنترك صاحبنا هذا يحترق مايشاء ويشدو ما أراد ولننظر فى غير ذلك .

— ٤ —

أين أبو شادى من هذ العصر؟ الحكم فى ذلك يتطلب منا تفهم العصر نفسه وما قد يمتاز به أدبه وشعره . فلقد بدأت الحياة الأدبية الحديثة فى هذه البلاد باحياء القديم وكان البارودى مثال هذه الخطوة الأولى فى الشعر . فشعره صورة من الأقدمين المعروفين . وهذه الخطوة لازمة اذ لا يمكن بناء الجديد على غير هذا الأساس . ولقد حاول الشعر الاتصال بالحياة الحديثة فى الشرق بل والتأثر بالغرب . فتيسر لاسماعيل صبرى مع مدرسته أن يفيض على آثاره روحا رفيقه فرنسية فيها خيال خصب جميل رائع ولكن الأدب عامة قد اتجه بعد الحرب العالمية الأخيرة الى ناحية فلسفية علمية ولم يعد الناس يقنعون من الأديب بالأفاكيه يتندربها دون فقهها أو تحليلها . كذلك ألحوا على المنشئين أن يكونوا صورة صادقة لعصورهم فنشأت بذلك طبقة فى مصر مالت بالشعر الى تلك الناحية العلمية

الفلسفية ونفرت كثيرا من أنواع المديح والاطراء التي بليت بانقضاء أيامها .فهل يجوز أن يكون الشعر علما وفلسفة ؟

أما ان الشعر يصبح منظومات علمية أو فلسفية تعرض لتقدير الحقائق الخالصة والنظريات المجردة فشرع انتهى الناس من انكاره وقصروه على نظم المتون التي تسهل على الطلاب حفظ المسائل واستظهارها ، على أن تحصيل العلوم بهذا الأسلوب صار ثقيلا ممقوتا.

ولكن الشعر الذي يعيش في ضوء العلم والفلسفة هو الشعر القويم البرىء من الخسف فترى الفن الشعري إذا مسته الفلسفة يروح ويزداد وعمقا وخلودا .وقد ذكر الناس لذلك قصيدة المعري المشهورة في الرثاء . وشاعرنا هذا له في ذلك مواقف معروفة.

***

فأبو شادي مثقف ثقافة علمية فلسفية لا أظن أنها توافرت لكثير غيره ولاسيما من الشعراء . وثقافته هذه تظهر في نثره الى درجة رائعة معجزة .وتمس شعره مساً خفيفا أحيانا وقويا في بعض القصائد حتى لتكاد تشعر أن صاحبنا عالم يملي على الناس (المراسيم) التي لا مرد لها — على حد تعبير صديقنا الأديب العبقري الأستاذ كامل كيلاني . . — وهنا يتعثر بعض القراء فيرون في ذلك مبالغة في تحميل الشعر ما لا يطيق أو في سبق الزمن . . . وأبو شادي يريد أن يجعل للشعر سلطانا على مظاهر الحياة فيستوعبها سواء أكانت علما أم فنا أم أدبا — لا يحجم عن ذلك بل قد يغلو .ولا شك أن المنصفين يوافقونه الى درجة تأثر الشعر بالرسالة العالمية التي تتمثل فيما انتهى اليه الزمن من التقدم العلمي او الفني او الفلسفي .فتكون تلك عصارات تنتهي الى روح الشاعر فيبرزها للجمهور فنا جميلا خالصا يغذي حاجز النفوس ويقرأ فيه الناس أرواحهم وما يشعرون .

نتيجة ذلك كله أن أباشادي الآن يقف عند نهاية الطريق التي يحاول الشعر أن يصل إلى غايتها في هذا العصر . ولكن موقفه ليس المثل الأعلى — كما يصفه أنصاره المخلصون، كما أنه ليس مقصرا — كما قد يلاحظ ذلك بعض ناقديه .وإنما موقفه موقف الشاعر العصري الفاتح الذي يبدأ الجهد ويبغي الكمال !

القاهرة

أحمد الشايب